The Linguistic Structure of the Quran between Common Customary Language and Special Customary Language

Dr. Ali Dhaigham Taher
University of Basrah / College of Humanities
E-mail: ali.taher@uobasrah.edu.iq

Abstract:

This article presents an overview and critique of the most prominent theories regarding the nature of the language of the Quran. Among these theories, the "common customary" theory argues that the Quran has employed the same methods and principles of discourse used by rational individuals to convey meanings and understand Arabic speech. In contrast, the "special Quranic language" theory suggests that the Quran has used words and phrases with meanings and terms that it introduced itself, which can only be understood from the Quran itself or through what was revealed with it.

Some scholars argue that the language of the Quran is a "composite language" consisting of several languages because the Quranic verses have multiple dimensions. Another perspective chosen by the researcher relies on the defining characteristics of the Quran's language, known as the "language of guidance" or "special custom".

Key words: Quran, religious language, common custom, special custom**.**

البِنية اللغوية القرآنية بين لغة العرف العام ولغة العرف الخاص

المدرس الدكتور علي ضيغم طاهر
جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الإنسانية
E-mail: ali.taher@uobasrah.edu.iq

الملخص:

يقدم هذا المقال عرضاً ونقداً لأهم النظريات المطروحة حول ماهية لغة القرآن؛ وأشهرها هي نظرية "العرف العام" التي ترى أن القرآن قد استخدم نفس أساليب وأصول المحاورات التي يجريها العقلاء في إيصال المعاني وفهم الكلام العربي، وفي مقابلها ظهرت نظرية "اللغة القرآنية الخاصّة" والتي ترى أن القرآن قد استعمل الكلمات والجمل في اصطلاحات ومعاني قد ابتدعها؛ ولا يمكن فهمها إلاّ من القرآن نفسه أو عبر الذي خوطب به.

ويرى بعض المحققين أن لغة القرآن "لغة مركبة" من عدة لغات؛ لأنَّ آيات القرآن ذات أبعاد متعدّدة، وثَّمة وجهة نظر أخرى –اختارها الباحث– استندت في تحديد ماهية لغة القرآن على خصائص لغة القرآن نفسها عُرفت بـ "لغة الهداية" أو "العرف الأخص".

الكلمات المفتاحية: القرآن. لغة الدين. العرف العام. العرف الخاص.

المقدمة:

اشترط علماء السلف من هذه الأمّة أن يكون المفسِّر لكتاب الله عارفاً بلغة العرب ومناحيهم في القول، قال مجاهد: (لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)(١)، وعِلاوة على ذلك يرى جملة من الباحثين المعاصرين في أصول التفسير أنْ لا يكتفى بمعرفة نظام اللغة ومفاهيمها ومفرداتها، وأكّدوا حاجة المفسِّر إلى صياغة نظرية في موضوع النظام اللغوي القرآني العامّ ؛ وعليه أن يحدد –قبل الخوض في عملية فهم وتفسير القرآن– رؤيته حول نوع لغة القرآن وخصائصها، فالقرآن –بوصفه كتاباً الهياً معجزاً ومهيمناً على غيره من الكتب، ويعالج الظرف التاريخي الخاصّ بمرحلة الامّيّين، ويلبي حاجات الأجيال عبر مختلف العصور، وشاملاً لعلوم متعدّدة ومعارف عميقة، ومحيطاً بأوضاع الغيب والإنسان والطبيعة، ويهدف إلى هداية الإنسان بأساليب متنوعة– هو نص لغوي ذو بنية لغوية متكاملة ومتميّزة، والبحث في بنية النص القرآني وطبيعة لغته؛ يكشف لنا ضرورة أن يتبنّى المفسِّر في مقام التفسير نظرية معيّنة في لغة القرآن حتى يذلّل مشكلات فهمها وتحليلها، وليصل إلى المعنى الصحيح لكلام الله بشكل أفضل، كما إن اختيار أيّ نوع من أنواع اللغة يؤثر في اختيار منهج تفسير القرآن وآليات فهمه، وسيكون له عدّة نتائج لغوية ودلالية مهمّة في عملية التفسير.

الخلفية التاريخية لبنية لغة الدين وبنية لغة القرآن :

يعدّ موضوع البنية اللغوية للنصوص الدينية من الموضوعات المهمّة التي تُبحث في فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد، وقد حظيت بإهتمام كبير في الدراسات المعاصرة وظهرت آراء مختلفة ومتعارضة بشأنها. وتشير لغة الدين (Language of Religion) إلى البنية اللغوية للدين؛ (وتُعنى بكيفية اللغة التي تكلم بها الدين، وكيفية إيصال الرسالة الإلهية إلى الناس)(٢)، وتتناول أسئلة تتعلق بطبيعة اللغة الدينية وأسلوبها في إيصال مقاصدها إلى مخاطبيها، فهل لغة الدين لغة عرفية بنحو تكون افاداتها للمعاني بأساليب اللغة المتداولة أو أنها لغة خاصّة؟ وهل لغة الدين ذات دلالة معرفية تعبّر عن الواقع أم أن لغة الدين لا معنى لها، أي خالية من المعنى أو هي بمثابة العاب لغوية، كما تقول الوضعية المنطقية، أو هي لغة رمزية، كما يقول بول تيلش: إن لغة الايمان هي لغة الرموز، أو إنها تماثلية مجازية؟ كما يقول توما الأكويني(٣).

لقد شغلت لغة النصوص الدينية أفكار الباحثين المهتمّين بفهم النص الديني منذ فترة طويلة؛ ولكن بعد عصر النهضة وظهور النزعة النقدية تجاه النصوص الدينية في الغرب؛ أصبحت القضية ذات أهمية مضاعفة.

وعلى الرغم من أن آثار العلماء والباحثين المسلمين السابقين لا تخلو من مسألة لغة الدين، وخاصّة المفسِّرين والعرفاء والمتكلِّمين والأصوليين، إلاّ أن طرحها كموضوع مستقل عن التخصصات المتعدّدة

وفروع المعرفة الأخرى ليس له تاريخ طويل، إذ لم يُشر اليها في البحث العلمي بصراحة؛ إلاّ بعد أن تعرّض لها علماء الغرب في الدراسات الخاصّة بالنصوص المقدسة (التوراة والانجيل)، وكان هدفهم من تلك الدراسات هو معرفة كيفية ايصال المعاني في النصوص الدينية، فهل أن الخطاب الإلهي أتخذ أسلوباً خاصّاً به أو كان خطاباً عاديّاً؟ وهل أن النص الديني يكشف عن الواقع أو أن لديه لغة خاصّة كلغة الأقاصيص والأساطير والرموز؟

لقد نشأ وتبلور في الدراسات الدينية والفلسفة اللسانية في الغرب مصطلح "لغة الدين"، وترجع جذوره إلى الآراء والنظريات الدينية في اللاهوت التي طرحها فلاسفة الدين ومتكلِّمو المسيحية في سياقات تاريخية خاصّة أدّت إلى ظهور البحث في طبيعة لغة الدين في بنيته الحالية، ويمكن ايجاز أسباب ظهور بحوث اللغة الدينية في العالم الغربي بما يلي:

١- إشكالية التهافت الداخلي بين بعض النصوص الدينية (التوراة والانجيل).

٢- إشكالية تعارض العلم مع الدين (بين تعاليم التوراة والانجيل والعلوم التجريبية) وبشكل أساس بعد ظهور العلمانية الجديدة التي ترى أن المنهج التجريبي هو الطريق الوحيد لمعرفة الحقائق، ولحل هذه الإشكالية، ذهب عدد من الفلاسفة والمتكلّمين إلى الفصل بين العلم والدين على أساس أن لكل منهما دوره ولغته الخاصّة به، وفي ضوء هذا يصار إلى تفسيرين متباينين تماماً؛ وعليه لا يمكن أن يحكم على أحدهما بمعايير الآخر وموازينه(٤).

٣- كذلك ارتبط البحث في لغة الدين بدلالات النصوص الدينية في مجال اللاهوت والأفعال والصفات المشتركة التي تطلق على الله وعلى البشر مثل: القدرة، العلم، السمع، الإرادة، والتكلّم.

٤- الثقافة ونوع الأفكار الشائعة في الغرب وظهور النظريات الحديثة: كالفلسفة التحليلية، وفلسفة اللغة، والوضعية المنطقية، وكذلك الهرمنيوطيقا التي أولت اهتماماً بفلسفة الدين(٥).

وأمّا مباحث لغة القرآن فترجع جذوها إلى الأبحاث التي أثيرت بين المسلمين حول مسائل متعدّدة في علم الكلام وعلوم القرآن والتفسير؛ كالبحث في الصفات والأسماء الإلهية والكلمات المستعملة في التعبير عنها، وهل تدل على المعنى العرفي المتداول أو أن لها معاني أُخر، وكذلك مباحث المحكم والمتشابه، وتأويل المتشابه، والظاهر والباطن القرآني، والحقيقة والمجاز، والإعجاز القرآني وغير ذلك.

النظريات المطروحة حول بنية لغة القرآن

ليس المقصود من لغة القرآن؛ اللغة العربية التي تنزّل وقُرئ ودوّن بها القرآن؛ وإنما هي أحد أهم المجالات في علوم القرآن التي تبحث في مفاهيم وقضايا وتعاليم القرآن من جوانبها اللغوية، كقضية الخطاب القرآني وكيفية إيصاله مقاصد الشريعة إلى الناس، وهل كان من خلال لغة العرف العامّ أو لغة

العرف الخاصّ؟ وأيضاً هل لغة القرآن ذات مستوى واحد أو ذات مستويات متعدّدة؟ وهل هي لغة الظاهر أو أنها لغة قابلة للتأويل؟ وهل هي لغة واحدة أو أنها متعدّدة، وهل أن ماهيّة المعنى في مفاهيم القرآن ومفرداته هي نفس ما يفهم من المفردات المماثلة لها في العرف العامّ أو لا؟ وهل أن قضايا وجمل القرآن ذات معنى أو خالية من المعنى(٦) وغير ذلك من المسائل.

والقضية التي يتناولها البحث هنا هي طبيعة اللغة التي استعملها الباري -عزّ وجلّ- في ارسال الوحي وايصال الهداية، وفي حديثه مع مخاطبيه لإيصال معانيه ومقاصده، فهل هي اللغة العرفية العاميّة الموجود في فضاءات المجتمع أو هي اللغة العلمية، أو الفلسفية، أو الفنية، أو العرفانية أو اللغة الرمزية أو أن له لغته الخاصّة به؟

لقد طرحت حول تبيين لغة القرآن نظريات مختلفة حتى الآن، وبعضها لها تاريخ طويل جدًا؛ ولكن في السنوات الأخيرة تم تقديم آراء ونظريات أكثر حداثة مما طرح سابقاً، وأهم هذه النظريات هي كالآتي:

بنية لغة القرآن "لغة العرف العامّ"

المقصود من لغة العرف العامّ: (هي اللغة التي استعملها بالفعل يومياً جميع الناس الذين ينتمون إليها وليس المقصود من ذلك اللغة كما في الوضع قبل أن تدخل في الاستعمال، أيّ مجموعة من النظم المجردة)(٧)، وهي لا تختصّ بطبقة أو بفئة معيّنة، كالشعراء أو العلماء أو الوعّاظ، وأمثالهم، وهي تشتمل على طيف عريض من الأساليب اللغوية الشائعة والمتعارف عليها بين جميع طبقات المجتمع في التفيهم والتفاهم ونقل المعاني والمفاهيم.

ومن هنا نقصد بلغة العرف في مورد القرآن (النظرية التي ترى أن القرآن يعتمد الأسلوب نفسه المتداول بين عامّة العقلاء في نقل المعاني وتحقق المفاهيم، وإن صاحبه -تبارك وتعالى- لم يخترع أسلوباً جديداً لإبلاغ رسالته)(٨) أي أن مُنَزِّلَ القرآن الكريم تحدث في القرآن بنفس الأساليب المشتركة والمتعارف عليها في قانون المحاورة والتفهيم والمفاهمة بين العرب إبّان عصر التنزيل.

يقول السيد أبو القاسم الخوئي: (لا شك أن النبي -صلّى اللّه عليه وآله وسلّم- لم يخترع لنفسه طريقة خاصّة لإفهام مقاصده، وأنه كلّم قومه بما ألفوه من طرائق التفهيم والتكلّم وأنه أتى بالقرآن ليفهموا معانيه، وليتدبّروا آياته...)(٩).

وأشار العلاّمة محمد هادي معرفة في كتابه (التفسير الأثري الجامع)(١٠) إلى أن القرآن في إفاداته قد وجّه خطابه نحو العموم، مراعياً جانب اختلاف المستويات بشكل بلاغيّ بديع، واستشهد لذلك ببعض الآيات التي تؤكّد عربية القرآن منها قوله -عزَّ وجلَّ-: {وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم..}(١١)، واستشهد برواية عن -النبي صلّى الله عليه وآله-، قال فيها: (إن الله أنزل القرآن عليَّ بكلام العرب، والمتعارف في لغتها)(١٢).

يمكن القول أن جمهور الأصوليين يذهبون إلى أن القرآن الكريم قد عمل بسيرة العقلاء في التحاور والتفاهم فيما بينهم، وصرح بعضهم في مناقشاته لحجّية ظواهر القرآن: (بأن طريق محاورات الشارع في تفيهم مقاصده للمخاطبين لم يكن طريقاً مخترعاً مغايراً لطريق محاورات أهل اللسان في تفهيم مقاصدهم)[١٣].

ومن علماء السلف من ذهب إلى أبعد من ذلك، كالشاطبي الذي يرى أنْ ليس للقرآن دلالات ومفاهيم أكثر من الدلالات والمفاهيم العرفية التي يعهدها العرب الأمّيّين في عهد التنزيل؛ وعليه فلا ينبغي للمرء أن يكلّف نفسه عناء فهم المزيد من الدلالات اللغوية الجديدة أو الزائدة على ما ألفته العرب، ويمكن أن نطلق على وجهة النظر هذه اسم "اللغة العرفية المحضة".

وقد أسس الشاطبي قاعدة لفهم القرآن تركّز على لغة القرآن وما عهدته العرب فيها، وذلك بقوله: (لا بد في فهم الشريعة من اتّباع معهود الأمّيّين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم يكن ثمَّ عرف فلا يصحّ أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه وهذا جار فى المعاني والألفاظ والأساليب)[١٤]، و(إنما يصحّ في مسلك الأفهام والفهم ما يكون عامّاً لجميع العرب فلا يتكلّف فيه فوق ما يقدرون عليه بحسب الألفاظ والمعاني)[١٥]؛ وعليه فإن كل ما جاء في القرآن من علوم ومعارف هو من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها، ويعتمد في فهمه على قدراتهم وطاقاتهم ولا يتكلّف فيه من المعاني فوق ذلك.

وكذلك من المعاصرين يذهب صاحب "التفسير الحديث" إلى أن لغة القرآن في مفرداتها وتراكيبها واصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي نفس لغة بيئة وثقافة عرب الحجاز في عهد التنزيل، وليس في لغة القرآن علوٌّ على أفهام العرب الذين خوطبوا به ووجّه اليهم، لا من ناحية النظم والسبك واللغة ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة؛ فلم تكن معانيه بعيدة من متناول إدراكهم ولا أن مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم؛ بل هي ولغة بيئة النبي شيء واحد[١٦].

نقد نظرية العرف العامّ

يمكن أن نسجّل هنا حول لغة العرف العامّ نقاط قوة تقابلها نقاط تبيّن ضعفها، فمن وجوه قوّتها: أنها قابلة للفهم من قبل الجميع، وأنها تنسجم مع أهداف الدين في ايصال الهداية للجميع، ولكن لغة القرآن لغة دينية، ولغة الدين تختلف من جهات عن لغة العرف؛ وهذا يعني أن الالتزام بلغة العرف العامّ في مورد القرآن كأصل أو فرضية سابقة يؤدي إلى اشكاليات عميقة، وتناقضات مع خصائص لغة القرآن الكريم، ونحن نسجل هنا أهم نقاط الضعف التي تعاني منها هذه النظرية بتقريريها المذكورين:

١- التسامح والمبالغة: فكلام العرف لا يخلو من مسامحة؛ لأن لغة العرف لا ترقى الى الدقّة والعمق؛ بل على العكس يكثر فيها المبالغة والمسامحة، أما لغة القرآن فمن خصائصها أنها تلفت إلى الدقّة في تخيّر الألفاظ، ولو كانت لغة القرآن لغة العرف لشاهدنا فيها المبالغة والمسامحة، ولو كانت كذلك لصعب الاعتماد على كلماته، ويصبح كل تدبّر وتفكّر في آياته لغواً.

لقد تنبّه العلماء القدامى إلى دقّة القرآن المتناهية في استعمال واختيار اللفظ المناسب للمقام المناسب، فلاحظوا تخيّر الفاظه المؤتلفة مع معانها وسياقها، بحيث لا تؤدي وظيفتها غيرها بنفس الدقّة، يقول ابن عطية الأندلسي: (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أُدِيرَ لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد)[١٧]، وهذا الأديب العربي الجاحظ أشار إلى ذلك في قوله: (وقد يستخف الناس الفاظاً يستعملونها، وغيرها أحقّ بذلك منها، ألا تر أن الله -تبارك وتعالى- لم يذكر في القرآن "الجوع" إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون "السغب" ويذكرون "الجوع" في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر "المطر"، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به في مواضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصّة لا يفصلون بين المطر وبين ذكر الغيث...)[١٨]، ولاشك أن حسن اختيار اللفظ واستعماله بما يناسب أغراض المتكلم يدل على دقّة وعمق اللغة القرآنية.

وكذلك على مستوى النظم يؤكّد كبار البلغاء على تخيّر الألفاظ الفصيحة ونظمها على نسق خاصّ وترابط تام في بنية النص القرآني، وقرر ذلك عبد القاهر الجرجاني بقوله: (وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟)[١٩]، ويمكن تتبع شواهد أخرى كثيرة تدل على دقّة القرآن في اختيار اللفظ المناسب لسياق الكلام، ومدى ملائمته للمقام وتجسيد الموقف الدقيق والتعبير عنه بدقّة.

٢- اللغة الدينية -في بعض جوانبها- لغة متعالية؛ واللغة العادية لا يمكنها التعبير عن المعاني المتعالية الواقعة خارج العالم الحسي الذي نعيشه؛ لأن التعابير الاعتيادية نابعة من تجاربنا المحسوسة وهي لا تتسع إلى التصورات الدينية المعبِّرة عن مشيئة الله وكمال ذاته وعن عالم الغيب، فلابد من التعرف على لغة أخرى ذات منطق خاصّ وبنية تركيبية مختلفة التعبير، غير اللغة اليومية، من دون أن تلغيها أو تنافسها أو تعطلها[٢٠].

يذكر العلامة الطباطبائي: أن هناك الكثير من المفردات والعبارات التي لا يمكن فهمها بوسائل الكلام العربي الاعتيادي، ويؤكد على ضرورة البحث عن نظام دلالي آخر قادر على كشف معانيها، يقول: (ومما يجب أن يعلم أن الحديث كمثل القرآن في اشتماله على المحكم والمتشابه، والكلام على الاشارة والرمز شائع فيه، ولاسيما في أمثال هذه الحقائق: من اللوح والقلم والحجب والسماء والبيت المعمور والبحر المسجور، فمما يجب للباحث أن يبذل جهده في الحصول على القرائن)[٢١].

٣- نظرية العرف العامّ تفترض أنه ليس في القرآن معان أُخَر وراء ما يفهمه أهل العرف، وهذا يتعارض مع ما تؤكّده الأحاديث المعتبرة، وهو أن القرآن ذو بطون ومراتب.
٤- إن القول بعرفية لغة القرآن؛ لا يعني أننا نستطيع أن نجد في عصر التنزيل لكل لفظ من الفاظه وعبارة من عباراته معنى موضوعاً أو استعمالياً، و(صحيح أن القرآن نزل بلغة العرب ونصّه لا يحتمل الشك...؛ ولكن الفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين العرب بأكملها؛ لأن القرآن استعمل الفاظاً لم يكن يستعملها الجاهليّون وخصّص الفاظاً لمعان لم يكن يخصّصها الجاهليّون)[٢٢]، وهذا لم يكن إلاّ مع وجود عرف لغوي خاصّ بالقرآن.

٥- إن أهم ما يستدل به على نظرية العرف العامّ هو أن القرآن وصف نفسه بأنه عربي، وأنه بلسان قوم الرسول -صلّى الله عليه وآله-؛ ولكن كون القرآن {بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين} و{قُرْآناً عَرَبِيًّا} و{حُكْماً عَرَبِيًّا}[٢٣]، لا يدلّ على أن لغته لغة العرف العامّ، وإنما يعني: (هو كلام عربي روعي فيه جميع ما يراعى في كلام عربي)[٢٤]؛ وهو على مستوى المعاني بيّن وواضح خال من التعقيد ميسّر للفهم لمن عاش نظام اللغة العربية أو تعلمها سواء كان عربياً أو أعجمياً، وهو عربي على مستوى الفصاحة والبلاغة والنظم؛ فإن كلمة "عربي" يمكن أن تكون بمعنى اللغة العربية، ويحتمل أنها اشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد؛ لأن "العربي" كما يقول الراغب: (الفصيح البيّن من الكلام)، وكلا المعنيان وارد في القرآن، والقرائن هي التي تحدد أحد المعنيين في الآيات[٢٥].

وأمّا آية: {وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} فهي تشير إلى لزوم أن يتحدث كل رسول بلغة قومه الذين يعيش بين ظهرانيهم، ليفهموا قوله، فإذا كان قوم الرسول ناطقين باللغة العبرية فإن رسولهم لابد أن يحاورهم بالعبرية، وإن كانوا ناطقين باللغة العربية فلابد أن يتحدث معهم بالعربية وهكذا.

إذن هذه الآيات ونظائرها لا تدل لزوماً على أن لغة القرآن تساوي لغة العرف من كل الجهات، بل أقصى ما تدل عليه هو أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، وهم يفهمونه ويعلمون معانيه في كلماته وعباراته، ولو لم يكن مفهوماً لسقطت حجّته، ولاعترضوا بأنه كلام غير مفهوم لديهم؛ ولكن هذا المستوى من الفهم يمكن أن يتحقق في ظواهر القرآن الكريم التي تفهم في حدود العرف العامّ، ولا ينفي وجود لغة متعالية على اللغة المتعارفة وراء ظاهره.
٦- وأما كون فهم القرآن يتأسس على معهود الامّيّين وهم العرب في عصر النزول، وعلى مقدار فهمهم وإدراكهم؛ فهو قول واه؛ لأنه يقتضي بقائهم على حال الأمّيّة وعدم انتقالهم في العلم والمعرفة من حال إلى حال وهذا باطل، كما يناقض خلود القرآن وعموم دعوته؛ فكون القرآن معجزة باقية لابد أن يكون فيه ما

يصلح؛ لِأنْ تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمّة، وأيضاً فإن مقدار فهم الامّيّين له لا يقتضي إلاّ أن يكون المعنى الأصلي مفهوماً لديهم فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيّأ لفهمها الأجيال القادمين، كذلك فإن من تمام إعجازه إيجاز الألفاظ مع غزارة المعاني(٢٦).

بنية لغة القرآن "لغة العرف الخاصّ"

المقصود من اللغة الخاصّة: (هي لغة طبيعية، كما تعدّ وسيلة للتعبير عن معارف متخصّصة)(٢٧)، أي إنها لغة اصطلاحية خاصّة في مجال معين. وقد طرح بعض العلماء والمحققين نظرية العرف الخاصّ في مورد القرآن الكريم؛ ومبناهم الذي تتأسس عليه هو القول: باشتمال القرآن على بنية خاصّة (فوق–بشرية) تتمثل في المعاني الرفيعة التي تسمو على مداليل القوالب اللفظية التي هي من صنع البشر، وتكون معايير التفهيم والتفاهم المتاحة غير كافية لفهم هذه المطالب الرفيعة؛ لأنها تقع خارج نطاق المعاني المعهودة في العرف العامّ. ولنظرية العرف القرآني الخاصّ تقريرات متنوعة أهمها:

التقرير الأوّل: أن بنية القرآن اللغوية لها خصائص تميّزها عن النصوص الأخرى؛ فهي لغة تخصصيّة تنقل المفاهيم بطريقة خاصّة غير معهودة في النصوص الأخرى، وبالتالي لا يدرك معانيها إلاّ من له دراية بأعراف ومصطلحات القرآن الخاصّة.

جاء في كلمات العلاّمة معرفة في تبيين هذه النظرية: (إن للقرآن الكريم في افادة تعاليمه العالية طريقته الخاصّة، ولقد اعتمد القرآن في بياناته الكافية والشافية أسلوباً يختلف عن الأساليب العاديّة التي يستخدمها الناس في مقام المحاورة، كما أن للقرآن مصطلحاته الخاصّة التي يجب معرفتها حتى يمكن الوصول إلى حقائقه العالية)(٢٨).

وفي موضع آخر يقول: (للقرآن لغته الخاصّة به، ولسانه الذي يتكلّم به، ولهجته التي يلهج بها، ممتازة عن سائر اللهجات... نعم يختصّ ذلك بالتعابير ذوات الاصطلاح، وليس في مطلق تعابيره التي جاءت وفق العرف العامّ)(٢٩).

ويقول الزقاني مبيّناً أسلوب القرآن: (فأسلوب القرآن الكريم في طريقته التي انفرد بها في تأليف واختيار الفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن أُسلوبه الخاصّ به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أُسلوبه الخاصّ به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدّد بتعدّد أشخاصهم بل تتعدّد في الشخص الواحد بتعدّد الموضوعات التي تتناولها والفنون التي تعالجها)(٣٠).

ويرى كبار الأدباء والبلغاء الدارسين لإعجاز القرآن وعلى رأسهم الرماني(ت:٣٨٤)، والخطابي(ت:٣٨٨)(٣١)، والباقلاني(ت:٤٠٣)، والجرجاني(ت:٤١٧)(٣٢)؛ أن للقرآن لغة خاصّة شكلت

هويته الأساسية، وهذه هي الميزة التي جعلت القرآن كتاباً معجزاً، وتحدثوا عن اعجاز القرآن بطريقة تشير إلى أن للقرآن نظماً وتركيباً خاصّين، وأنه استعمل أسلوباً خاصّاً لإيصال المفاهيم لمخاطبيه.

التقرير الثاني: لغة القرآن لغة خاصّة، والمخاطب بها هم مجموعة معينة من البشر وهم أفراد مميزون، ولديهم هوية مستقلة، وتكون هذه اللغة "تخصصيّة"، يختصّ بفهمها المعصومون؛ فهم من خوطب بالقرآن، أو الأولياء كما هو عند المتصوفة. وعلى الرغم من أن كلماتها وعباراتها مأخوذة من اللغة العرفية العامّة؛ إلاّ أن المعاني المرادة منها تخرج –غالباً– عن اطار اللغة العامّة، ويتمّ من خلالها ارادة معاني خاصّة، كما هو الحال في أيّ عرف الخاصّ، ويمكن أن نطلق عليها اسم "اللغة الخاصّة المحضة". وابرز أنصارها أتباع الاتجاه الباطني والاتجاه الأخباري.

والاتجاه الباطني في التفسير هو الاتجاه الذي يعتقد أن للقرآن ظاهراً وباطناً وأن ما يبدو للفهم من ظاهر القرآن ليس هو المراد حقيقة؛ وإنما المراد منه باطنه، وأن نسبة الظاهر إلى الباطن نسبة اللب إلى القشر(٣٣)، وأن المعنى الباطن معنى ورائي، يكون فهمه مقصوراً على الأولياء و(غير ظاهر على أكثر الناس ويتوقف حصوله على القوّة القدسية دون المقدمات الفكرية)(٣٤).

والأخباريون وهم الذين يعتقدون أن ادراك وفهم أهل البيت –عليهم السلام– هو الملاك الوحيد لفهم لغة القرآن؛ قالوا بذلك بناء على فهمهم لجملة من الروايات التي تؤكّد على مكانة أهل البيت –عليهم السلام– العلمية ولزوم الرجوع اليهم في فهم وتفسير القرآن، مثل قول الامام –عليه السلام–: (أنما يعرف القرآن من خوطب به)(٣٥)، أو قوله: (أنا الكتاب الناطق)(٣٦).

وعلى هذا الأساس أسقطوا حجّية ظهورات القرآن، فصار –بالنسبة اليهم– مجملاً، وظهوره ظنّياً لا اعتبار له، وقالوا بعدم إمكانية فهم أيّ آية من آياته؛ وبذلك أغلقوا باب فهم القرآن الكريم تماماً إلاّ من طريق من خوطب به (المعصوم)، ومن أدلتهم على ذلك هو (اشتمال القرآن على مضامين شامخة ومطالب عالية لا تكاد تصل اليها أيدي أفكار أولي الأنوار غير الراسخين العالمين بتأويله... مع اشتماله على علم ما كان وما يكون وحكم كل شيء)(٣٧).

ويظهر من بيانات بعض القائلين بنظرية العرف الخاصّ بتقريرها الأول؛ أن القرآن قد تحدّث بعرفه الخاصّ الذي لم يسبق له مثيل، في أنواع من آياته، كالآيات الكلاميّة والآيات الرمزية والتمثيلية، وفي أنواع أخر استعمل الأساليب الشائعة في العرف العامّ لإيصال مقاصده.

أما وجهة النظر الأخبارية والباطنية فهي ترى أن القرآن قد استعمل أسلوبه الخاصّ في جميع آياته.

نقد نظرية العرف الخاصّ

وأهم ما يؤخذ على نظرية العرف الخاصّ ما يأتي:

١- تفترض هذه النظرية أن مخاطبي القرآن هم أفراد خاصّين وهم المعصومين- كما هو عند الأخباريين- أو العرفاء -كما هو عند المتصوفة- أو الأدباء والمتخصّصين؛ إلاّ أن هذا المبنى لا ينسجم مع عموم خطاب القرآن الموجّه إلى الناس كافة، وغرضه الأكبر وهو ايصال الهداية والمعرفة للبشر جميعاً.

٢- من أدلة هذه النظرية بتقريرها الأخباري هو منع انعقاد ظهورات القرآن لدى الناس العاديّين؛ لإشتماله على مضامين عالية، وهذا يتنافى مع كون القرآن حجّة إلهية في دعوته الناس كافة إلى التوحيد؛ فإن اشتمال القرآن على المضامين العالية، لا يمنع من فهم ظواهره الواضحة، والاستدلال والاحتجاج بها. كما أن الاحتواء على المضامين العالية ليس بمعنى كونه ألغاز وأحاجي ومعميات لا يقف على مغزاها أهل النظر والتدبر، وإلاّ لصار الاحتواء عليها أمراً لغواً.

٣- إن هذه النظرية بتقريرها الأخباري والباطني تخالف القرآن في دعوته إلى التدبّر والتحدّي، وتعارضه في أوصافه بأنه نور وكتاب مبين، وأنه تبيان لكل شيء، وأنه عربي مبين، مضافاً إلى مخالفتها لقوله تعالى: {وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ...}، ومخالفتها لمبدأ التيسير المفهوم من قوله تعالى: {فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} والتيسير هنا هو تسهيل الفهم[٣٨].

٤- إن حصر إدراك وفهم معاني وحقائق القرآن بالمعصومين أو بالعرفاء يتنافى مع سيرة المعصومين أنفسهم في ارجاع الناس إلى القرآن وحثّهم على العمل به.

بنية لغة القرآن "لغة مركبة"

يعتقد جماعة من الباحثين في شؤون القرآن أن لغة القرآن ليست ذات بعد واحد؛ وإنما هي ذات أبعاد وشؤون مختلفة: اعتقادية، أخلاقية، اجتماعية، سياسية وتكوينية، وغير ذلك، والقرآن الكريم لأجل انتقال معانيه إلى مخاطبيه استعمل الفاظاً حقيقية ومجازية؛ استعمل فيها التمثيل والكناية والرمز والاستعارة، بما يناسب موضوعاتها، وهذه الأساليب المتعدّدة ليست متباينة أو منفصلة عن بعضها البعض، وإنما هي تشكل مجموعة منسجمة ومتناغمة تتجه نحو تحقيق الهدف العامّ للقرآن الكريم وهو الهداية لعموم البشر في كل العصور، وهذا الانسجام والتناغم بين هذه الأساليب يكوّن لغة القرآن المركبة.

وهذا يعني أن القرآن الكريم قد استخدم كل الأساليب المتاحة لتحقيق أغراضه وبيان مطالبه؛ فقد استعمل لغة العرف العامّ في نوع من الآيات، كالآيات ذات الموضوعات الفقهية، ولغة العرف الخاصّ في نوع من الآيات كالآيات ذات البعد التمثيلي[٣٩].

يكتب أحد الباحثين: (لغة القرآن لغة مركبة، وبأدنى تأمل في موضوعات ومحتوى القرآن الكريم يمكن أن ندرك أن هذا الكتاب السماوي جاء بأساليب مختلفة واتجاهات مختلفة ليدفع نحو تربية وهداية الخلق)[٤٠].

يقول باحث آخر مبيّناً هذه النظرية: (اللغة المركبة تعني: أن القرآن من جهة تنوّع آياته –بحسب موضوعها– إلى آيات: عقدية، فقهية، تربوية وأخلاقية، يكون له أكثر من لغة، ومن جهة كون خطابه شاملاً لعوامّ الناس والمتخصّصين والمعصومين؛ قد استعمل لغات متعدّدة، ومن جهة أهدافه وغاياته؛ قد عرض آرائه بنحو يتناسب مع زمان النزول، كما هو في الآيات النازلة في المرحلة المكية السابقة على الآيات المدنية، ولكل منهما لغة خاصّة.

كذلك الآيات المرتبطة بالطبيعة، مثل السماء والأرض والآيات المرتبطة بعلاقة الإنسان مع الله، أو الإنسان مع الإنسان الآخر، والآيات المتعلقة بالعلوم والفنون يكون لها لغات أُخر.. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نحدّد للقرآن لغة خاصّة؛ ولكن له لغة مركبة متكاملة تتمايز عن اللغات الأخرى)[٤١].

والجدير بالذكر أنه يمكن أن نعثر على اشارات إلى هذه النظرية في كلمات بعض العلماء والمفسّرين، وإن لم يحدّدوا في أبحاثهم اللغة القرآنية بشكل صريح ومباشر؛ لعدم تعرضهم للمسألة، مثلاً نجد في كلمات العلامة الطباطبائي ما يؤيد اللغة القرآنية المركبة، إذ يعتقد أن مثلما للدين أبعاد مختلفة، فقد تم استعمال أساليب مختلفة في النصوص الدينية، بما يناسب تلك الأبعاد، فلغة الدين مركبة من الانشاء والاخبار، والتمثيل، والكناية، الاستعارة، والحقيقة والمجاز، ويُشير إلى أن القرآن لا يختص بنوع واحد من الإعجاز، وإنما هو مركب من وجوه متعدّدة: (فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه اعجازاً لكل فرد من الانس والجنّ من عامّة أو خاصّة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول...)[٤٢].

أيضاً يوجد في كلمات الامام الخميني اشارة إلى هذه النظرية؛ فبحسب افاداته يقسم آيات القرآن إلى: آيات ذات قضايا عملية وهي التي تتعلق بالمجالات الأخلاقية، والنصائح، والأحكام الفقهية، والتي يجب أن تكون لغة الدين فيها هي لغة العرف؛ لأن المخاطب فيها والغاية منها هو عموم الناس؛ ولذلك يجب أن يتطابق لغة الدين مع اللغة العرفية الرائجة بينهم، وإلاّ يحصل إخلال بتلك الغاية. وآيات أُخر ذات قضايا معرفية؛ والقضايا المعرفية هي القضايا التي تشتمل على معارف أو وصف لحقائق الأشياء المجردة أو حتى بعض الأشياء المادية، وهذا النوع من القضايا تكون اللغة الدينية فيه لغة متعدّدة الأبعاد تتعالى على فهم العرف العامّ[٤٣].

ويقول: (القرآن عبارة عن مائدة بسطت لكافة الفئات والطبقات، أن لغة القرآن هي لغة السواد الأعظم من الناس ولغة الفلاسفة والعرفاء والعلماء وغيرهم، وقد حوى هذا الكتاب أموراً كثيرة أهمّها الأمور المعنوية)[٤٤].

جدير بالذكر أن هذه النظرية طرحت بأشكال مختلفة، ولكن جوهرها هو أن لغة القرآن لم تكن لغة العرف فحسب، ولم يكن له لغة خاصّة به، وإنما له أكثر من أسلوب ولغة بحسب موضوعاته.

نقد نظرية "اللغة المركبة"

تمتاز هذه النظرية بانسجامها مع هدف النص القرآني في ايصال الهداية لعامة البشر، ومع دعوته في التدبّر في آياته، وتعليم الناس وتزكيتهم، وتمتاز باتساع دائرة مخاطبيها لتشمل طبقات متعدّدة على اختلاف مستوياتهم المعرفية؛ إلاّ أنها لا تخلو من بعض النواقص التي تخالف بها بعض خصوصيات لغة القرآن، وأهمها:

١- إن هذه النظرية صنّفت آيات القرآن حسب الموضوع، ثمَّ حدّدت لكل مجموعة منها لغة خاصّة تناسب موضوعها، فيما أن من خصوصيات أسلوب القرآن أنه يمزج بين دائرة المعارف والأحكام العملية والتربوية والأخلاقية ويمنع التمييز والفصل بين أنواع اللغات التي تحمل هذه المعاني[٤٥].

٢- أغفلت هذه النظرية ميزة الإعجاز في القرآن، وموضوع البطون[٤٦].

٣- انصب الحديث في هذه النظرية على المضمون دون (الشكل)، فهي ناظرة إلى التنوع الموضوعي في القرآن، وأغفلت الجانب الأسلوبي، ولم تشر إلى الأساليب اللغوية التي تعتمدها اللغة القرآنية في إيصال تلك المضامين والمفاهيم المتنوعة إلى مخاطبيها، وإذا رجعنا إلى القرآن سوف لن نعثر على رسوم ومصطلحات فلسفية أو علمية أو تربوية أو ما شابه ذلك، فما هو الأُسلوب الذي من خلاله تم طرح مثل هذه المضامين والمفاهيم؟

بنية لغة القرآن "لغة الهداية"

أطلق بعض الباحثين المعاصرين من المتخصّصين في الدراسات القرآنية على لغة القرآن عنوان "لغة الهداية"، وفي كتاباته المتأخرة "لغة العرف الأخص"، وهو يرى (إن للغة القرآن حيثيتين أحداهما عرفية والثانية أخصّ من العرف؛ فهي عرفية من حيث إن اللغة العربية واضحة وممكنة الفهم وتعمل على ايصال مداليلها إلى المخاطب، وهي أخصّ من العرف من حيث إن مقاصدها ومصاديقها هي من سنخ آخر، تنبع من أفق أرفع من أفق المعارف البشرية وهي لم ترسل إلاّ لتغيير رؤاهم ومواقفهم وسلوكياتهم)[٤٧].

تحدّد هذه النظرية لغة القرآن من خلال تحديد مزاياها ومعالمها؛ فهي ترى أن القرآن رغم التزامه بالضوابط والأطر المعرفية العامّة في نقل المعاني؛ فإن له مزايا خاصّة في أسلوب خطابه تفتقدها اللغة العادية، وتشكّل هذه المزايا شواهد لنظرية العرف الأخصّ، وأهم هذه الشواهد ما يأتي(٤٨):

١- عالمية لغة القرآن وخلودها: فلغته خالدة وحية لا تخضع لتغيّر الزمان، وخطابه عام قابل أن يفهم من الناس كافة سواء كانوا علماء متخصّصين أو من الطبقة العامّة.

٢- تنوّع موضوعات القرآن وتنوّع أساليب وأدوات لغته بما يتناسب مع مخاطبيه وحاجاتهم، ولكل واحد منها تأثير في هداية الإنسان.

٣- لغة القرآن لغة اعجازية صيغت في قالب أسلوبي يمزج بين اللفظ والمعنى وأسلوب تركيب الجمل؛ وسر اعجازه يكمن في نظمه الفريد وفي فصاحته غير المألوفة.

٤- اشتمال لغة القرآن على الظاهر الذي يفهمه مختلف الناس، وعلى الباطن الذي ينطوي على حقائق متعالية تختصّ بأهل النظر، ومنها ما يختصّ بأولياء الله المطهّرين.

٥- تأثير ثقافة القرآن في ثقافة ما قبل الإسلام، فإن بعض المفردات صارت تحمل معاني قرآنية تغاير ما كانت عليه في ثقافة الجاهلية.

٦- أسلوب القرآن وقدرته على المزج بين المسائل والمعاني ذات الأبعاد المختلفة بنحو يمكن للعوام أن يفهموه، وللمتخصصين أن يتعمقوا في دقائقه ولطائفه.

نقد نظرية "العرف الأخص"

استفادت هذه النظرية من البراهين الصحيحة التي ساقتها النظريات التي سبقتها وتجنبت نواقصها وأخطائها؛ وإن أهم ما يميّزها هو استنادها إلى مزايا وخصائص خطاب القرآن نفسه في اثبات لغته العرفية الأخصّ، ومن مزاياها أنها لم تُخرج اللغة القرآنية عن الأطر والقواعد العامّة التي يعتمدها العقلاء كافة، وفي نفس الوقت لم تهمل الأساليب الخاصّة والمعاني الرفيعة فيها، ولها ميزة أيضاً أنها تتوافق تماماً مع خلود رسالة القرآن وهدفه في هداية البشرية جمعاء.

وبعد هذا العرض والنقد الموجز لأهم النظريات المطروحة حول لغة القرآن، وقبل تحديد النظرية المختارة؛ نجد من الضروري البحث في مسألة كيفية نشوء وبلورة العرف القرآني الخاصّ وعلاقته بالعرف اللغوي العامّ.

بلورة العرف القرآني الخاصّ في اطار العرف اللغوي العامّ

بناءً على مؤدى التحليل المتقدم نستنتج أن اللغة القرآنية تتجاوز اللغة الاعتيادية المرتهنة بوسائل التعبير والبيان عند العرب، وتتميّز بأن لها سماتها الخاصّة على مستوى بنيتها العامّة؛ فهي نشأت من

الطريقة الجديدة غير المألوفة التي استعملها القرآن من أجل التعبير عن حقائقه الغيبية؛ سواء على صعيد الاستعمال اللغوي للمفردات، أو على صعيد أشكال التعبير وأساليب النظم؛ وعليه فإن تحديد أو اختيار نوع لغة القرآن يستدعي تبيين كيفية نشوء وبلورة العرف القرآني الخاصّ على الصعيدين المذكورين:

بلورة العرف القرآني الخاصّ في مجال المفردات

من الثابت أن اللغة ظاهرة اجتماعية من خصائصها التحول والتطور على مر الزمن وهذا التطور قانون مستمر؛ يحصل كلما توفرت دواعيه وعوامله، ومن أهم دواعيه هو حصول تغيرات في البنية الاجتماعية، وهذا ينطبق على التحول الفكري والثقافي الذي أحدثه نزول القرآن في بيئة المجتمع العربي الجاهلي، وانعكس أثره على لغة العرب بعد أن أدخل النص القرآني مفرداتها وسياقاتها التركيبية المستعملة فيها في نظام مفهومي جديد؛ فأصبح لها في ثقافة القرآن معان جديدة خاصّة، وإن كانت غير منقطعة الصلة عن المعاني الموضوعة والمستعملة قبل الإسلام.

أكد المستعرب المختصّ باللسانيات "ايزوتسو" على أن كل الكلمات بلا استثناء تتلون قليلاً أو كثيراً بطابع متميّز خاصّ يتأتى من البنية الخاصّة للوسط الذي توجد فيه؛ وعلى هذا الأساس ميّز بوضوح بين مستويين من معاني المفردة القرآنية وهو ما أطلق عليه المعنى (الأساسي) والمعنى (العلائقي)، والأوّل: هو معنى مشترك مصاحب للكلمة لا يتغيّر بتغيّر الاستعمال، والثاني: هو معنى سياقي يتمُّ الحاقه واضافته إلى المعنى الأوّل، عند اتخاذ الكلمة موقعاً خاصّاً في النظام الدلالي الجديد للقرآن.

وبما أن كلمات مثل: ساعة، قيامة، دين، حساب، البعث، كفر، شكر، ايمان، آيات وغيرها؛ قد دخلت في سياقات القرآن الكريم، فقد طالها التحول الدلالي واكتسبت معان دينية جديدة اضافة إلى معانيها الأساسية الأولى[٤٩].

ومن جهة أُخرى يرى العلامة الطباطبائي أن القرآن وإن كان قد راعى كلام العرب من حيث استعمال الألفاظ والجمل واعمال الصناعات اللفظية؛ لكنه يختلف عنه من جهة المراد والمصداق الذي ينطبق عليه مفهوم الكلام[٥٠]؛ فالقرآن قد تحدّث عن حقائق ذات ماهيات غير مألوفة في العرف العامّ، وموجودات غيبيّة غير مسانخة لموجودات هذا العالم، تقع خارج الحس والمادة، مثل: الملائكة والجن والروح القدس والجنة والنار والقيامة والصراط والعرش والكرسي والسماوات، واستعار لها نفس الكلمات والمفردات المتداولة؛ لكنه لم يستعملها في صرف معانيها السائدة؛ بل سكب عليها معان جديدة تناسب حقيقة تلك المصاديق المغايرة لفهم العرف، لا ينالها ادراك البشر.

مغايرة النص القرآني لسائر أنماط الخطاب المعهود

انشغل الدارسون لإعجاز القرآن في النظر في العناصر اللغوية والبلاغية التي انبنت عليها بلاغة القرآن وميّزته عن غيره من أنماط الخطاب المعهود في زمن الوحي، وتحدثوا عن أساليب القرآن من ناحية النظم والتأليف، فعدّوه جنساً مبتكراً ونمطاً فريداً يتميّز كل التمييز عن الأساليب المستعملة في فضاءات الثقافة العربية، فهو وإن كان من جنس كلام العرب؛ إلاّ إنه قد ابتدع طريقة مخصوصة في النظم والتأليف خالف فيها القواعد التي جرت عليها أساليب نظم الكلام المعروفة عند البشر، وهو ما اصطلحوا عليه "بنقض العادة"، وقد عدّوا تلك المغايرة أهمّ وجوه اعجازه التي لا يمكن مجاراته فيها والاتيان بمثله، ذكر الباقلاني: إن نظم القرآن (خارج عن العادة وإنه معجز، وهذه الخصوصية قد ترجع إلى جملة القرآن، وتميّز حاصل في جميعه)[٥١]، ويقول: (نظم القرآن على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتادة...)[٥٢]، وقال الرماني: (وأما نقض العادة... فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة)[٥٣]. ووصف الجرجاني الإعجاز بأنه: (ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن، وأمراً لم يوجد غيره، ولم يعرف قبل نزوله...)[٥٤].

يمكن القول: إن بنية القرآن اللغوية الخاصّة تنبثق من اعجاز القرآن الكامن في نظمه وبنائه، فلقد انتهج القرآن أسلوباً يختصّ به خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ويتميّز عن أساليب الكلام المعتادة.

ومع أن للقرآن أسلوبه الجديد الخاصّ به وغير المألوف، فهو يأخذ معياره من داخل قواعد اللغة العربية ومقاييس الفصاحة فيها، وهو كتاب عربي مبين.

التوفيق المنهجي بين استعمال لغة القرآن الخاصّة والعرف اللغوي العامّ

سعى المحققون المهتمون في دراسة لغة القرآن إلى تحليل كيفية توظيف القرآن حيثيّة العرف الخاصّ إلى جانب حيثيّة العرف العامّ؛ فقد ذكر العلاّمة محمد هادي معرفة: أن ذلك يحصل من خلال تنوّع الأسلوب البنيويّ في النص القرآني وتنوّع تقنياته التعبيرية إلى: تعابير جاءت وفق اللغة والعرف العامّ؛ ويكون طريق فهمها هو اللغة والأصول المقررة عرفياً لفهم الكلام.

وإلى تعابير جاءت وفق مصطلح القرآن الخاصّ، وتحمل معاني غير معاني الكلام العرفي فلا تفهم إلاّ من قبل القرآن نفسه[٥٥]، وعلى هذا الأساس يكون للغة القرآن مستويين هما الظاهر والباطن و(الظهر لعامّة الناس حيث متفاهمهم، ويكون حجّة لهم...أمّا البطن فللخاصّة ممن يتعمقون في خفايا الأسرار)[٥٦].

ولكن التحليل التي قدمته نظرية (لغة العرف الأخصّ) أكثر تفصيلاً؛ فهي بالإضافة إلى قبولها بمرتبتين للغة القرآن هما: مرتبة العرف العامّ، ومرتبة العرف الأخصّ، فهي ترى أن هذا العرف الأخصّ ناشئ من المزايا الأسلوبية البنيوية والمضمونية للقرآن، وهو يقع ضمن اطار العرف اللغوي العامّ وليس في قباله؛ (فاللغات الخاصّة تتبلور في أدوات العرف العامّ سواء من حيث المفردات أم من حيث تركيب الجملة وبناؤها، ثم تتبدل بعد ذلك إلى عرف خاصّ)[٥٧].

النظرية المختارة في بنية لغة القرآن

نرى أن نظرية (لغة العرف الأخص) تتمتع بقوة الأدلّة والبيان الوافي؛ لأنها تكوّن نوعاً من التفسير لشرح كيفيّة نشوء وبلورة ظاهرة لغة القرآن ارتكازاً على عدد من مزايا الخطاب القرآني البنيوية والمضمونية؛ كقضية صياغة أسلوبه الإعجازي الذي يمزج به بين جانبي اللفظ والمعنى وأسلوب التركيب بينهما، ومزيّة شموله لجوانب الحياة الإنسانية كافة، ومزيّة أسلوبه الخاصّ في المزج بين الموضوعات المتنوّعة؛ وما ينتج عنه من تكوّن معاني ذات أبعاد تخصّصية، ومزايا أخرى، مثل: وجود ثقافة القرآن ومعانيه ومصاديقه المبتدعة، وتنوّع وجوه اعجازه، وخلوده وحيويته، وغير ذلك من المزايا.

كما أن هذه النظرية توضح أن لغة القرآن في مضمونها وأسلوبها هي لون خاصّ ونظام متميّز ضمن الدائرة الواسعة للّغة والثقافة العربيتين وغير منفصلة عنهما[٥٨].

أيضاً من مزاياها أنها ترتكز على كون معاني القرآن ذات مراتب مشككة، وقبولها بمرتبتين لغويتين للقرآن، هما: مرتبة الظاهر وهي خاضعة لنظام اللغة والفهم العرفي، وبها تتمُّ الحجّة والحد الأدنى من الهداية، ومرتبة الباطن وهي ترتبط بتفسير المعنى والمصداق، ومعرفتها منوطة بمعرفة العرف القرآني الخاصّ.

وعليه يمكننا القول: أن بنية لغة القرآن هي لغة الهداية وهي أخصّ من العرف العامّ؛ حيث إن مقاصدها ومصاديقها تنبع من أفق أرفع من أفق المعارف البشرية، وفي الوقت نفسه لا تنافي اللغة العرفية؛ لأنها اعتمدت في ايصال مقاصدها ومداليلها على اللغة العربية الواضحة، وبذلك امتازت عن لغة العرف العامّ واللغة الخاصّة.

الهوامش:

١- السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، ج٤، ص٢١٣.

٢ - سعيدي روشن، منطق الخطاب القرآني: دراسات في لغة القرآن، ص٤١، نقلاً عن:Peter Domain)، Religious Language, Fand shildon Pares, London,1985).

٣- الرفاعي، عبد الجبار، تمهيد لدراسة فلسفة الدين، ص١٩.

٤- انظر: مجموعة من المؤلفين، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع إلى الأسلمة، ص٦٨.

٥- سعيدي روشن، محمد باقر، منطق الخطاب القرآني: دراسات في لغة القرآن، ص٤١-٤٢.

٦- سعيدي روشن، محمد باقر، تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، ص٢٩٩- ٣٠١.

٧ - حورية جغبوب، مقال: اللغة المتخصّصة والمصطلح، مجلة: أقلام الهند، العدد الثالث، ٢٠١٩.

٨ - سعيدي روشن، محمد باقر، منطق الخطاب القرآني دراسة في لغة القرآن، ص٢٥٧.

٩ - الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ص٢٦٢.

١٠ - معرفة، محمد هادي، التفسير الأثري الجامع، ج١، ص٥٧-٥٨.

١١ - (الحج: ٣).

١٢ - المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٩، ص٢٨٢.

١٣- الأنصاري، مرتضى، فرائد الأصول، ج١، ص١٣٧.

١٤- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، ج٢، ص١٣١.

١٥- نفس المصدر، ج٢، ص١٣٦.

١٦- دروزه، محمد عزة، التفسير الحديث، ج١، ص١٤٧ – 156 .

١٧- الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص ٥٢.

١٨- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج١، ص٤١.

١٩- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، ص٣٩.

٢٠- قانصوه، وجيه، النص الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، ص٢٨٤.

٢١- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٠.

٢٢ –أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٦٢.

٢٣ – (الشعراء: ١٩٥)، (يوسف: ٢)، (الرعد: ٣٧).

٢٤– الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٧٨.

٢٥– الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص٤٣٠؛ ج١٠، ص٨٦.

٢٦ – انظر: ابن‌عاشور، محمد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٤٢.

٢٧– حورية جغبوب، مقال: اللغة المتخصصة والمصطلح، مجلة: أقلام الهند، العدد الثالث، ٢٠١٩.

٢٨– معرفة، محمد هادي، مقال: معرفة لغة القرآن (شناخت زبان قرآن)، مجلة: بينات، العدد ١، ص٥٤.

٢٩– معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ج١، ص٧٥.

٣٠– الزرقاني، محمد عبد العظيم، منهل العرفان في علوم القرآن، ج١، ص٣٠٣.

٣١– انظر: الرماني – الخطابي – الجرجاني، (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، ص٢٧؛ ص١١١.

٣٢– انظر: الباقلاني، محمد بن الطيب، اعجاز القرآن، ص٣٥؛ انظر: الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، ص٢٤٨.

٣٣– بابائي، علي أكبر، مدارس التفسير الإسلام، ج٢، ص١٠٩–١١٠.

٣٤– الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني، ١٤١٥هـ، ج٨، ص٣١١.

٣٥– الكليني، محمد بن يعقوب، روضة الكافي، حديث ٤٨٥، ص٢١٢.

٣٦– المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢٧٢.

٣٧– السبحاني، جعفر، المبسوط في أصول الفقه، ج٣، ص١٥١.

٣٨– ابن‌عاشور، محمد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص٣٤٤.

٣٩– مؤدب، سيد رضا، مناهج تفسير القرآن (روشهاى تفسير قرآن)، ص٢٠٥.

٤٠– شاكر، محمد كاظم، مباني ومناهج التفسير (مبانى وروشهاى تفسيرى)، ٢٠٠٣م، ص١٢٤.

٤١– مؤدب، سيد رضا، مناهج تفسير القرآن (روشهاى تفسير قرآن)، ص٢٠٧.

٤٢– الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٦٠.

٤٣– الخميني، روح الله، كشف الأسرار، ص٢٨٨–٢٨٩.

٤٤ – الخميني، روح الله، صحيفة الامام، ج٢٠، ص٣٢٩.

٤٥ – سعيدي روشن، محمد باقر، منطق الخطاب القرآني، ص٢٦١.

٤٦ – نفس المصدر، ص٢٦١

٤٧ – نفس المصدر، ص٢٣٨.

٤٨ – نفس المصدر، ص٢٦٣.

٤٩ – ايزوتسو، توشيهيكو، الله والإنسان، ص١١٧.

٥٠ – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٧٨.

٥١ – الباقلاني، محمد بن الطيب، اعجاز القرآن، ص٨٦.

٥٢ – نفس المصدر، ص٨٦.

٥٣ – الرماني، علي بن عيسى، النكت في اعجاز القرآن، ص١١١.

٥٤ – الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، ص248.

٥٥ – معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبة، ج١، ص ٧٥.

٥٦ – نفس المصدر، ج١، ص٧٦.

٥٧ – سعيدي ورشن، محمد باقر، منطق الخطاب القرآني، ص٢٥٣.

٥٨ – نفس المصدر، ص٢٦٣.

المصادر:

– الآلوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

– ابن‌عاشور، محمد طاهر، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ.

–أحمد أمين، فجر الإسلام، دار القلم للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٢٠م.

– الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.

– الأنصاري، مرتضى، فرائد الأصول، ط١، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤١٩هـ.

– ايزوتسو، توشيهيكو، الله والإنسان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧م.

- بابائي، علي أكبر، مدارس التفسير الإسلام، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠١٠م.

- الباقلاني، محمد بن الطيب، اعجاز القرآن، دائرة المعارف بمصر، ط٥، ١٩٩٧م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.

- حورية جغبوب، مقال: اللغة المتخصصة والمصطلح، مجلة: أقلام الهند، العدد الثالث، ٢٠١٩.

- الخطابي، حمد بن محمد، بيان اعجاز القرآن، المطبوع ضمن (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، ط٣، دائرة المعارف بمصر، 1976م.

- الخميني، روح الله، كشف الأسرار، بلا مكان، بلا تاريخ، ص٢٨٨-٢٨٩.

- الخميني، روح الله، صحيفة الامام، ط١، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الامام الخميني، طهران، ١٤٢٩هـ.

- الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة احياء آثار الامام الخوئي، قم، ١٤٣٠هـ.

- دروزه، محمد عزة، التفسير الحديث، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ.

- الرفاعي، عبد الجبار، تمهيد لدراسة فلسفة الدين، ط١، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ٢٩١٤م.

- الرماني، علي بن عيسى، النكت في اعجاز القرآن، المطبوع ضمن (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، ط٣، دائرة المعارف بمصر.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم، منهل العرفان في علوم القرآن، ط٣، مطبعة عيسى البابي.

- السبحاني، جعفر، المبسوط في أصول الفقه، ط١، مؤسسة الامام الصادق، قم، ١٤٣٢هـ.

- سعيدي روشن، منطق الخطاب القرآني: دراسات في لغة القرآن، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر، بيروت، ٢٠١٦م.

- سعيدي روشن، محمد باقر، تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، ط١، دار الولاء، بيروت، ٢٠١٤م.

- السيوطي، جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، ط٤، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٧٤م- ١٣٩٤هـ.

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، ط١، دار ابن عفان، القاهرة، ١٩٩٧م- ١٤١٧هـ.

- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، مدرسة الامام علي(ع)، قم، ١٤٢١هـ.

- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط١، جامعة المدرسين، قم، ١٤١٧هـ.

- قانصوه، وجيه، النص الديني في الإسلام من التفسير إلى التلقي، ط١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١١م.

- الكليني، محمد بن يعقوب، روضة الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران.

- مجموعة من المؤلفين، إشكاليات التعارض وآليات التوحيد: العلم والدين من الصراع الى الأسلمة، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر، بيروت، ٢٠٠٨م.

- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط١، مؤسسة الوفاء، بيروت.

- معرفة، محمد هادي، التفسير الأثري الجامع، ط١، مؤسسة التمهيد، قم، ١٤٢٨هـ.

- معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ط١، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامي، مشهد، ١٤١٨هـ.

المصادر الفارسية:

- شاكر، محمد كاظم، مباني ومناهج التفسير (مبانى وروشهاى تفسيرى)، ط١، المركز العالمي للعلوم الإسلامية، قم، ٢٠٠٣م.

- معرفة، محمد هادي، مقال: (شناخت زبان قرآن)، مجلة: بينات، العدد ١، عام ١٤١٤.

- مؤدب، سيد رضا، مناهج تفسير القرآن (روشهاى تفسير قرآن)، ط١، الناشر: جامعة قم، قم ٢٠٠٧م.